الجريدة ١٩٥٦/١/١

ذكرى ميشال شيحا

الكبير الذي خسرناه

بقلم ميشال الأسمر

نص الحديث الذي ألقاه الأستاذ ميشال أسمر، مؤسس الندوة اللبنانية، في الإذاعة اللبنانية مساء الخميس ٢٩ كانون الأول ١٩٥٥، لمناسبة الذكرى السنوية الأولى لوفاة فقيد لبنان والفكر الأصيل ميشال شيحا :

" لبنان، قبل كل شيء، بلد الفلاحين، والتجّار والشعراء، هو بلد الواقع والحلم مجتمعين. تعمّ فيه وتسود إشعاعات الفطنة والثقافة والعلم الى جانب أشغال اليد والأرض. فيه تحلو الصلاة كما تحلو الحياة. الطبيعة في ربوعه جميلة ناعمة والسماء الزرقاء تبدو فوق السطوح سهلة المتناول لكل من أهاليه.

هو بلد الروحانيات والزمنيات معا، بلد التأملات السامية والنشاط الزاخر المتنوع. إن لبنان اليوم تآلف بين الماضي الوقور والحاضر الغني بالأعمال، الحافل بالمقدرات المقبلة."

إن هذه اللوحة يمثل بها ميشال شيحا وطنه ووطننا لبنان في طرفة أدبية له، لتمثله هو خير تمثيل. هي صورة صادقة عن تعلقه بالأرض ومواهبه في حقل العمل وانطلاقاته في أجواء الخيال. هي تفيدنا عن ذكائه الفارط وثقافته الواسعة وعلمه الجم وعما يعرفه المقربون إليه من عناية خاصة بترتيب بيته وأرضه. هي هو في "تسابيحه" وفي وجوه نشاطه هنا في مصرفه، وهناك في جريدته "له جور" وهنالك في قيادته الوطنية، مع ما يتخلل ذلك من اتصالات ومقابلات ومسارات ومناقشات وتوضيحات وتوجيهات، قامت كلها على ركيزة واحدة لبنان في هذا الخضم، صخرة صامدة على الزمن.

إن كانت أحدية الذات بين مواطن ووطن، بين رجل وفكرة قد تحققت يوما، فقد لمسنا ذلك في سيرة ميشال شيحا ومصيره. كان قد قام في أذهان الأجيال الجديدة ترابط وثيق بين حياة ميشال شيحا وديمومة لبنان جعلنا لا نستطيع أن نتصور تفككا بينهما، غيابا هنا واستمرارا هناك.

ولذا، يوم غاب، صبيحة التاسع والعشرين من كانون الأول عام ١٩٥٤ ، وجّه ميشال شيحا عن وطنه وعن أصدقائه ومواطنيه، وسرى خبر غيابه صدى قلعة تتساقط وقمة تنهار، صعق الناس لهول الخبر وجزعوا فعبّر عن جزعهم واحد من عندنا شارل حلو صاح : " لقد مات رجل وكأن لبنان اتخن جراحا". ثم قام في مجلس الأمة أحد نوابها كمال جنبلاط يقول : " غياب ميشال شيحا يجعل لبنان في حداد. وهذا الغياب خسارة جسيمة مؤلمة للمسلمين والمسيحيين على حد سواء، فهو قد بشّر طول حياته بمبدأ التعايش المحق بين الفريقين بانتظار صهر جميع العناصر في وحدة وطنية كاملة."

ولقد أجمع الضمير الوطني، يومذاك، على أن بناة الخير في نهضة وطننا الحديثة كثيرون غير أنهم جميعا يوافقون على أن ميشال شيحا كان معلم الكل، وأن شخصية لبناننا اليوم، في وجوده القومي والعربي والمتوسطي والعالمي، مدينة له بتحديدها وبروزها وإشعاعها.

لأيام الذكرى جلالها وهيبتها وعنفها. ومما لا شك فيه أن هذا الحدث المقام هناك في حديقة الأموات على الزيتونة والذي يضم منذ سنة أقدس جثمان لأطيب روح عرفتها وأزخر قلب عايشته وأكبر دماغ خلاق في بلادي، قد لامسته هذا الصباح عواطف أفئدة الزوجة والإبنتين والأهل وقد عاشوا جميعا عشرات السنين في ظله وتحت كنفه، وبللت ثراه دموع المحبة والحنين. ومما لا شك فيه أيضا أن تلك الدار التي بناها ميشال شيحا في سنواته الأخيرة على قمة اليرزة متغلغلة في الأرض التي أحبها ومطلة على أمواج هذا المتوسط وآفاقه، قد أمّها الرفاق والأصدقاء والمعجبون يلتفون حول سلالة الفقيد مشاركينها في الذكرى محاذين مكتب المعلم المزار. ومما لا شك فيه أيضا أن هناك فئة، وقد تكون الأكثرية، آثرت الإبتعاد عن الحدث وعن الدار، وعاشت يومها في مناجاة مع ميشال شيحا وفي مطالعة لما ترك لها المعلم من آيات أدبية ووطنية خالدة في "بيت حقله" و "محاولاته" و "محاضراته" و "تسابيحه" – وكلها قطع من فلذات كبده. وإننا، الساعة ، وقد مكنتنا وزارة الأنباء الكريمة من أن نتسامر وإياكم حول هذا المذياع في ذكرى ميشال شيحا – إننا لنود لو نردد فعل الإيمان الذي أطلقه فقيدنا حيال الموت حين قال " بأن كل شيء يبدأ من الموت وبأن المرء حين يستحيل ترابا يعتق عبدا".

يا لعبث الحياة الدنيا إن كانت نهايتها القبر، ويا لسخف الأيام والسنين إن كان حدها حد عين تنفتح على نور الشمس وتنام مع ظلام الليل.

لا ! ما هكذا علمتنا أديانا السماوية، ولا هذا كان ايمان ميشال شيحا. ولذلك، فلتجمد الدموع في أعيننا، ولنتطلع بإحياء رسالة من قدرنا واجببنا، ولنسر على مثاله وهديه !

نيّف وثلاثون سنة قضاها ميشال شيحا في نشاط فكري ووطني مرموق بوّأه الزعامة دون منازع في توجيه شؤون لبنان. والمجال يفيق هنا على سرد الوقائع والتفاصيل. غير أننا ذاكرون جميعا أنه كان الموجّه الأكبر في انتفاضة الإستقلال عام ١٩٤٣، والدعامة المتينة لمشاريع الإصلاح والتعمير في الأعوام التي تلته، ثم كان هو، هو بالذات، الذي أطلق الشرارة الأولى من نار الصخب تندلع على الإنحراف عن الصراط المستقيم. وفي العهد الجديد، تخبرنا المقامات العليا في الدولة أنها كثيرا ما لجأت الى استشاراته واستنارت بآرائه متجهة في نهاية المطاف باتجاهاته الصائبة الحكيمة. وبالأمس القريب، قال لي واحد من كبار المسؤولين ممن عنوا بقضية الليطاني :

" في الليلة الظلماء يفتقد البدر ...

" أين ميشال شيحا يطمئن الى سديد الرأي واضعا حدا نهائيا لتضارب النظريات وتباين الآراء ؟"

أما السفراء والوزراء المفوضون الأجانب فكلهم كانوا على اتصال به تنقل دوائرهم خلاصة افتتاحياته اليومية في "له جور" الى وزارات الخارجية في بلدانهم.

إن صوت ميشال شيحا، يوم كان يطلع علينا مفصلا" صبيحة كل نهار في زاوية جريدته، ويوم كنا نسمعه عاما من على منبر "الندوة اللبنانية" أو خاصا في جواره المعطاء، إن هذا الصوت كان نبرة علوية تتحسس قدسية الحرف في كل كلمة فيجيء منارة طريق وهداية حياة.

لقد شاء ميشال شيحا دائما أن يتجنب الإفراط في هذا الصوت في الحلقات الصاخبة وضجيج الشارع، غير أنه لم يبخل به يوما في كل حوار مفيد. أسمعه أصحاب السلطة وقادة الرأي وكل متعطش للحقيقة، موزونا دسما ملهما. ولطالما كان هو الكلمة الفصل في القضايا الحيوية الحساسة والمحرك الأخير في الإتجاهات الشخصية.

صدقوني، أيها المستمعون الكرام، إن لبنان مدين لهذا الصوت بدستوره الخيّر ونقده السليم، بشيوع الحرية السياسية والحرية الإقتصادية في مبادئه القومية العامة، وباكتنافه لرسالته التقليدية في صهر الثقافتين الغربية والشرقية في نفوس بنيه. وهو هذا الصوت الذي وجّه العرب الى اعتماد التاريخ والجغرافيا في شؤون سياستهم الداخلية والخارجية. وهو إياه الذي كان السباق الى التحذير من مغبة تضخم اسرائيل. وهو إياه أيضا الذي عرّف المحافل الغربية مباشرة أو بالواسطة، بدور لبنان الخاص في تنسيق الإتجاهات والأهداف في منطقة الشرق الأدنى.

وإن كان من حظ لبنان أن يولد ميشال شيحا مواطنا واعيا على أرضه، فمن كبير حظه أيضا أن يكون صوت ميشال شيحا لم يطلق في الفضاء هباء بل سجل حبرا على ورق مقالات ومحاضرات وكتبا، وفعل في التاريخ دستورا وأعمالا ومقررات. وأما سيرة الفقيد، فخط مستقيم فكرا وخلقا ووطنية.

هذا قليل وقليل جدا من كثير كثير جدا مما يقال عن فقيد لبنان والفكر الأصيل معلمنا جميعا ميشال شيحا. فإن كان للصداقة عهد، وإن كان يقتضي للوفاء متوجبات، وإن كان عند القادة والمفكرين إحساس بضرورة المساهمة في إشاعة الرأي القويم الموجّه والفكر العميق الصائب. وإن كنا حقا ممن يغارون على القيم الخلاقة، النادرة تطلع في بلادنا، لأخذنا العهد على أنفسنا بأن نجعل مما خلفه لنا ميشال شيحا قولا وعملا، تراثا لبنانيا صميما نركزه دعامات في عقيدتنا وحياتنا وفي ضمائر أبنائنا وأحفادنا.

غداة غاب وجه ميشال شيحا عنا، قام عندنا، بمهمة الرئيس حبيب أبي شهلا، حركة دعيت "مؤسسة ميشال شيحا" اعتبرت أن ميشال شيحا سلمنا وطنا بناه قلبه وعقله بالمحبة والتيقظ وعرق الجبين، وأخذت على عاتقها المحافظة على تراث فقيدنا. فنحذر أن ننسبه الى الماضي. رسالة ميشال شيحا للمستقبل. وعلى أصحاب السلطة عندنا، وعلى الصحف الوطنية، وعلى أرباب الفكر وحملة الأقلام ، وعلى كل صاحب مسؤولية، في هذا البلد أن يعوا واجبهم الوطني، فيعمل الجميع بأمانة لهذه الرسالة ويستوعبوها كاملة ويعمموها خميرة بعث ونهضة وأمل في لبنان والشرق العربي.

" ليعد تراب ميشال شيحا الى التراب"، كما يقول صديقنا خليل رامز سركيس، ولنبق لذكراه حافلين وعلى عهده قائمين مخلصين.